مذكرات واعظ أسير

تأليف الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

للأستاذ كامل السيد شاهين

ما كان لمحنة الإخوان المسلمين أن تمر بغير تسجيل، وما كان لهذا العسف الوبيل الذي نالهم أن يذهب دون أن يدفع هؤلاء الذين باشروا بهم دفعاً بليغاً!.

وهذا الكتاب الذي أخرجه لنا الشيخ الشرباصي، وإن كان مذكرات؛ والمذكرات عادة تبرز فيها الذاتية، وتختفي الجماعية، إلا أنها ليست مذكرات في أيام طبيعية، بل في أيام عصيبة شاذة، مفرطة في الحلوكة والشذوذ — ومن ثم كانت تدور مع شخص كاتبها على الأحداث العامة والأوضاع المنحرفة، وكانت عين صاحبها يقظى لا يفوتها فائت، وكانت نفسه مرهفة لا تمر بها الحوادث دون أن تتردد فيها، وتمتزج بها، ثم تحكم عليها الحكم الذي ترتاح له

لقد كان قلم الشرباصي في هذه المذكرات مصوراً. فهو يصور الحجز الكريه وما يجد المحجوز فيه من كرب عظام، وما تقاسي فيه الإنسانية من ذلة وامتهان، وما يسمع البرءاء فيه من دروس تخلق روح الإجرام وتغري بالفساد. وهو يصور جماعة (البوليس) فئة لا يعوذ بها البريء فتحميه، ويستجير بها الخائف فتجيره، ولكنها أداة صماء مسيرة يحركها الباطش كيفما شاء. فئة لا تفهم من القانون إلا أنه الغطرسة المكذوب والاستعلاء المقيت والاستبداد بالمجرم والبريء على السواء. وفوق أنها مفتونة بمكانها، مجنونة بطغيانها — تجدها تتطامن للرشوة، وتباع ذمتها بالمال، وتلفق وتزور، وتداجي وتنافق. لقد حدثنا عنهم الأستاذ حديثاً منثوراً: حدثنا حديثهم في التفتيش، وحديثهم في القسم، وحديثهم في الطريق إلى المعتقل، وحديثهم في المعتقل نفسه. فمن كان باخعاً نفسه أسفاً على شيء فعلى وضع هؤلاء موضع الصيانة والحفظ، والتحكم في مصائر الناس فليفعل!.

وهو يصور لنا الاضطهاد المرير الذي يلقاه المعتقلون: من تأخير الطعام، ومنع الزائرين، وتكويم الفضلات يفرخ فيها الذباب الجسور، وأذى خاص للذين يكبرون ربهم، أو يؤذنون للصلاة، أو يعكفون على القرآن وكتب الحديث، أو يخطبون الجمعة، أو يوقظون إخوانهم ليجتمعوا على أداء حق ربهم!

وهو يصور لنا في سخرية أولئك المتطامين من المتدينين الذين يبهرون الناس ليظهروا بمظهر الغيرة الدينية، أو يحاولون أن يثبتوا تدينهم بشتم الذين تقعد بهم أعذار قاهرة عن القيام الباكر لصلاة الفجر، وأولئك الذين يجلسون مجلس الفتيا ويضاعتهم كلمة من شيخ أو خطابة من واعظ أو فتوى من عالم. وما أكثر ما نجد هؤلاء، وما أكثر ما نجد منهم، وما أكثر ما يجنون على أنفسهم وعلى غيرهم وعلى دينهم أيضاً

وهو يصور لنا أفاعي اليهود، يتمتعون في معتقلاتهم ويسمرون ويشربون ويقيمون الحفلات راقصة معربدة، وهم في خفارة رجال الأمن، وربما أشركوهم معهم في الطرب والفجور. فأما الإخوان المسلمون، فتصادر حرياتهم، وتقطع على ظهورهم بطون السياط، ويذهب بهم إلى الطور صاغرين واجمين، ويوقفون صفوفاً أمام شرطي صغير يأمرهم وينهاهم فلا يردون له أمراً، ولا يخالفون له نهياً، وترد إليهم معونات وإعانات من أهليهم فلا يصل إليها أيديهم.

وأبشع ما يطالعك من هذه الصور هذا الذي يشيع في الكتاب كله، من فوضى القسارة التي يلاقيها المعتقلون، فكل أحد يستطيع أن يغيظهم وأن يسطو بهم وأن يتحكم فيهم: متعهد الطعام، ومندوب الصحة، وتومندان المعتقل، وحراس الأبواب، وكل من اتصل بهم بسبب قريب أو بعيد

والعجيب أن يتمالأ هؤلاء جميعاً على النكاية بهذه الصفوة المختارة، فإن دل ذلك على شيء، فعلى تغلغل روح الفساد والانتهاز في طبقات الأمة دون استثناء. وأعجب من هذا أن تكون الأحكام العرفية — في بعض الأحيان — أداة لخاق الفتنة، ورد الأيدي في الأفواه، والجريمة الكبرى أن يدعي الباطشة الفجرة

أن بغيهم وعدوهم إنما هو استجابة لرغبة كريمة . فلعمرى ذلك الاؤم المضاعف !

الصور لا تنتهى .. فأينما رميت ببصرك فى هذا الكتاب طالعتك صورة ممتمة مؤلمة . وأنت بين ذلك واجد صوراً مشرقة وضيئة فى صور التعاون والتضامن الذى تخلقه المشاركة الوجدانية فى المحن الرازئة ، وصور الإبداع والاختراع الذى تظهره الحاجة الملحة ، وصور الصفاء الروحى والمراقبة التى يدافع إليها العجز المطلق وضيق الحيلة والأمل فى القوة الغالبة التى تعنو لها القوى جميعاً ، وصور الحنين إلى الحرية التى يوحى بها الأسر الظالم والبطش الغاشم . وصوراً أخرى لا يبلغها الاحصاء وكلها واضحة ناطقة أبلغ النطق ، صادقة أنصع الصدق ، مؤثرة أبعد التأثير !

وفى الكتاب على ذلك مآخذ لولا أن الأستاذ صديق عاقل لأعفيناه من الخوض فيها . مآخذ لا تشين الكتاب ، ولو أنها تورث هذه الصور كلها من بعض الجوانب . . فالأستاذ حريص الحرص كله على أن يذكر دائماً بأنه رجل خطيب وأن له جهوداً ملحوظة فى نشر الدعوة ، وأن له أتباعا وأحباء .. ويشهد الله أن ذلك صدق خالص ، ولكن الكريه فيه أن يكون حديثا على لسان صاحبه وبقلمه ، وقبيح بمثل الأستاذ أن يذكر بذلك ويكرره حتى يجد القارئ فى نفسه استكراها وملالة من معاودته ، وأخشى أن أقول إنه ربما أفضى به هذا الإلحاح المنيف إلى إصغار الكاتب والتهوين من أمره ، ومثل هذا العيب جار فى كتب كثيرة للأستاذ ؛ نرجو أن يبرأ منه فى كتاباته المقبلة إن شاء الله

وأحسب أن من ذلك ما ذيل به كتابه من تقريظ مهما يقل فيه ، فهو غال غلوا شديداً ليس من السداد إثباته ، وليس هو بالأثر الأدبى حتى يغتفر للأستاذ وصله بكتابه النافع ، فسائر هذه التقريظات غاية فى التفاهة والفهاهة ، ومن ذا الذى يكتب كتاباً أو مذكرة ثم لا يجد من طلبته — وهم كثر — من يقرظه بمثل قول (الشاعر) فيما يقول الأستاذ للمؤلف : —

أالقلب فيك متيم لنضالكم وكفاحكم للحق والإخلاص
أهلا بطلعتك السعيد عزيزنا أهلا فضيلة (أحمدالشرباصى)!

لا أظن أننى أقف الأستاذ على جديد إن أنا زعمت له أن ذلك شين عائب لكتابه هذا . ولا أظن أننى أذكر منه ناسيا ، إن أنا لفته إلى أن الكتاب حق القارئ ، وليس حقا له حتى يشجع صغار تلاميذه على حساب القراء !

تلك هفوة .. وأخرى أن الأستاذ ربما ظن أنه وقف موقفا كريما بدفاعه عن الأزهر . وشر ما فعل بهذا الدفاع الذى لا يرعى الحق . فالإخوان يقومون بلب اللباب من رسالة الأزهر . وعمادة الأزهر كادت تلفها الأعاصف لولا هبة الإخوان . فإذا لم يرفع الأزهر صوتا بالاحتجاج ، ولم يستطع إظهار غضبته من أن يكون التدين سبة وداعية للاضطهاد والعسف .. فإنه من الخسة والدنية أن يسخر الأزهر وعاظه فى أن ينالوا من الإخوان ويحكموا قيود البطش .. ألا إنه قليل للأزهر أن يلام ، وقليل لرجاله أن يتهموا بالخور والضعف والتدليس وحب الدنيا .. وإذا كانت قدمهم فى التنكر ما هى ، فإنه لأنكر منها أن يدافع عنها ويوقف إلى جانبها

وآخر ما آخذه على الأستاذ هفوة أدبية — ولو أنها ليست فى موضوع الكتاب إلا أنها جاءت متصلة بموضوعه :

فالأستاذ يرى أن المتنبى كان مرغما على مدح كافور الإخشيد .. ولست أدرى ماذا أرغمه ، ولم جاء إلى مصر إن لم يكن قصده المديح .. المتنبى رجل مداح لا أقل ولا أكثر . فإن ذهب إلى الشام فلمدح أمرائه قصد ، وإن جاء إلى مصر فلمدح حاكمها أراد ، وإن رحل إلى العراق وفارس فلهذه الغاية رحل ، فهل مثله يقال فيه إنه أرغم على مدح كافور ؟ ..

ويحدث عن كافور أنه كان عبدا بليدا .. فأما العبودية فليست مما يعاب به الإنسان كإنسان ولا يسب بها من ولى تربية بريئة من روح الجاهلية ، وأما البلادة .. فالحكم بها على كافور أمر يدعو إلى الضحك الذى تمسك منه البطون ، فأين وجدها الشرباصى ، وكيف ألصقها بهذا الحاكم الذكى الداهية .. لقد هجا المتنبى كافورا بما لم يسمع بمثله فلم يقل قط أنه كان غبيا ، وعندما تهيأ لمدحه لم يجد أفقا أوسع للكلام من أفق ذكائه ودهائه :

يجربا فهما من قبل تجربة مهذبا كرما من غير تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه فى ابتداءات وتشبيب

يدبر الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الشام فالنوب

ويقول الشرباصي إن الناس كانوا يسخرون منه عند ما يلقبونه (مولانا الأستاذ) ، والذي يظهر لي أن الأستاذ (أحمد لاكافور) لا يعلم أن كافورا كان قبل توليته الملك ، يدبر بيت الإخشيد . . وأن كلمة أستاذ كلمة فارسية من معانيها (المدبر).. فهذا لقبه ؛ فهل — بعد ذلك — يكون من السخرية أن ينادى المرء بلقبه

ويستدل الشيخ الشرباصي على غبائه وقلة فهمه بأن المتنبي كان يذمه ويهزأ به وهو لا يفهم ، وآية ذلك عنده أنه قال فيه : —

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

والبيت — في الحق — محتمل للسخرية ، محتمل المدح ، ولو سيق المدح كان ضعيفا . . ورأيي أن المتنبي لم يقصد إلا المدح ، وأن هذا من ضيق باعه لا من سوء قصده ، ودليلي على ذلك عتيد . . دليلي من القصيدة نفسها ، وشاهدي في سوابق هذا البيت ولواحقه .. قبل هذا البيت أبيات فيها رجاء ضارع ، وخنوع ذليل ، والتماس رضيع ، وسؤال ملحف . أفيكون من المعقول أن يقف الإنسان موقفا يمرغ فيه حر وجهه في التراب ثم يكون ساخرا في الوقت نفسه ؟ لا : إسمع إذن وتصور أبا الطيب : —

أبا المسك ، هل في الكأس فضل أناله فإني أغني منذ حين وتشرب

وهبت على مقدار كفي زمانتا ونفسي على مقدار كفيك تطلب

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

أفهذا قول ساخر ؟ أيتفق أن يكون المتنبي في هذه الذلة الذليلة ثم يقول ساخرا من كافور إني لما رأيتك شاع في نفسي السرور فأنت مما يتعلى ويتلهى به الناس ؟ أما إنه لو جاء هذا البيت فريدا مسلوخا من سوابقه ولواحقه لكان سخرية خالصة ! ولحق لابن جني أن يقول المتنبي : ما زدت على أن جعلت الرجل (أبازنة) يعني قردا ! . وإني أحيل الأستاذ إلى ما كتبه الدكتور طه حسين في كتابه (مع المتنبي) عن هذه الأبيات ليرى إن كان المتنبي ساخرا حقا.. وأن حاله كانت تستحق أحر الرثاء !

فأما قصيدته التي يزعم الأستاذ الشرباصي متابعة لمتأولة النحاة أنها جائية على التوجيه محتملة المديح والهجاء التي أولها :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

فإنما يذهب بها مذهب الاحتيال أو التحميل أولئك الذين يتحاذقون بقدرتهم على التأويل والتخريج ، فأما أحرار الأدباء والنقاد فليسوا من هذه الدعوى في شيء . . فلا يتم للأستاذ مازعم أنه كان يمدح كافورا بهذه الوجهات إلا إن كان من عشاق التأويلات العقيمة التي لا وزن لها في شرعة الأدب الصحيح ! .

— وأعجب مما رأيت أن يقول لنا الشيخ الشرباصي أن المتنبي في هذه النونية مدح شبيباً مدحاً بليغا في حضرة عدوه وقاتله كافور ، وهذا أمر نوافقه عليه ، ثم قال إن هذا المدح البليغ كان من المتنبي استجابة لدواعي الرجولة والبطولة ، وهذا ما نراه فيه قد سقط ، وإليك أولا الأبيات :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على الملات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

وما كان إلا النار في كل موضع تثير غبارا في مكان دخان

فنال حياة يشتهيها عدوه وموتا يشهي الموت كل جبان

وقد قتل الأعداء حتى قتلته بأضعف قرن في أذل مكان

اهتز الشيخ أحمد كما يقول اهتزازا عنيفا لهذا الموقف ، ففيه — على ما يدعي — جرأة وشجاعة ، وفيه صدع بكلمة الحق لوجه الحق ، وهو — أي الشيخ أحمد — رجل مولع بعظائم الأعمال فيما قال أو كما قال !

يا لك من رجل طيب القلب ، ماذا كنت تنتظر من المتنبي في مدح كافور بعد قتل شبيب ؟ أكنت تنتظر أن يقول له : لقد قتلت شبيبا الجبان الخوار الذي كان يفرق من قتل دجاجة ! . . لو قال ذلك لكان أجهل الناس بأسلوب المديح ، ولكان قتل شبيب عملا نافيا ساقطا لا وزن له . . ولكان المتنبي لم يأت في مدح كافور بشيء .. ولكن المتنبي عمد إلى رغم شبيب وإعظام شأنه ، والإشادة ببطولته ، ونصب حوله هذه القلاع المحصنات فجعله صديقا للسيف ، وأبرزه نارا مجتاحة لا تثير الدخان ولكنها تثير الرماد .. ثم تهيأ له بعد أن جعله أمنع من بيض الأنوق أن يقول